

كتاب الفناء في المشاهدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قدر وقضى وحكم فأمضى ورضي وأرضى وتقدس وعظمة وجلالاً أن يكون عوضاً لما تنزه أن يكون جوهرًا أو عرضاً وطهر قلوب من اختار من عباده فلم يجعل بها من علل الشكوك والشبه مرضاً. ولا نصبهم لسهام المجادلة والمخاصمة غرضاً. أضاء لهم بذات الأضياء حسام الهدى المنتضى فضاق بهم الفضا. فمنهم من لبس ونضا ومنهم الجعافير والأضياء، فمن لبس ثوبه جعل ما منحه قرضاً، ومن نضا ثوبه قلب عين سنته فرضاً. فعرضهم لمباهاة الملاء الأعلى عرضاً، وحكمهم في العالم العلوي والسفلي فأورثهم سماء وأرضاً، فهم يقطعونها بقدم القدم طولاً وعرضاً، ويتحكمون في قواعدهم إبراماً ونقضاً، والصلاة على من قيل له ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] ، فتميز بهذا المقام عمّن قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤] صلاة دائمة بلسان القدم فلا يجوز عليها انقضا، وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالرضا وعلى إخوانه المصدقين به من المقام العلي المرتضى.

أما بعد فإن الحقيقة الإلهية تتعالى أن تشهد بالعين التي ينبغي لها أن تشهد، وللكون أثر في عين المشاهد فإذا فني ما لم يكن وهو فإن ويبقى من لم يزل وهو باقي حينئذ تطلع شمس البرهان لإدراك العيان فيقع التنزه المطلق المحقق في الجمال المطلق، وذلك عين الجمع والوجود ومقام السكون والجمود فتري العدد واحداً لكن له سير في المراتب فيظهر بسيره أعيان الأعداد ومن هذا المقام زل القائل بالاتحاد، فإنه رأى مشي الواحد المراتب الوهمية فتختلف عليه الأسماء باختلاف المراتب، فلم ير العدد سوى الأحد، فقال بالاتحاد فإذا أظهر باسمه لم يظهر بذاته فيما عدا مرتبته الخاصة وهي الوجدانية ومهما ظهر في غيرها من المراتب بذاته لم يظهر اسمه وسمي في تلك المرتبة بما تعطيه حقيقة تلك المرتبة فباسمه يفنى، وبذاته يبقى فإذا قلت الواحد فني ما سواه بحقيقة هذا الاسم وإذا قلت اثنان ظهر عينها بوجود ذات الواحد في هذه المرتبة لا باسمه وإن اسمه يناقض وجود هذه المرتبة لا ذاته.

وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلو فغوره بعيد

التلف فيه قريب فإن من لا معرفة له بالحقائق ولا بامتداد الرقائق ويقف على هذا المشهد من لسان صاحبه المتحقق به وهو لم يذقه ربما قال أنا من أهوى ومن أهوى أنا فلماذا نستره ونكتمه .

وقد كان الحسن البصري رحمه الله إذا أراد أن يتكلم في مثل هذه الأسرار التي لا ينبغي لمن ليس من طريقها أن يقف عليها دعا بفرقد السبخي ومالك بن دينار ومن حضر من أهل الذوق وأغلق بابه دون الناس وقعد يتحدث معهم في مثل هذا الفن فلولا وجوب كتبه ما فعل هذا وكذا قال أبو هريرة رضي الله عنه فيما ذكره البخاري في صحيحه حملت عن النبي ﷺ جرابين فأما الواحد فبثته فيكم وأما الآخر فلو بثته لقطع مني هذا البلعوم، وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْزُ يُنْهِنُ﴾ [الطلاق: ١٢] لو ذكرت تفسيره لرجتموني ولقلتم أني كافر وعن علي بن أبي طالب عليه السلام ضرب بيده إلى صدره ويقول: آه إن ههنا لعلو ما جمه لو وجدت لها حملة وقال عليه السلام ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقع في صدره ولم يبين ما ذلك الشيء فكتمه عليه وليس كل علم يلزم به للعالم تبيينه وقال النبي ﷺ: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم» فينبغي لمن وقع في يده كتاب الله في علم لا يعرفه ولا سلك طريقه لا يبدي فيه ولا يعيد ويرده إلى أهله ولا يؤمن به ولا يكفر ولا يخوض فيه البتة، رب حامل فقه ليس بفقيه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [يونس: ٣٩] ﴿فَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦] فقد ورد فيهم الذم حيث تكلموا فيما لم يسلكوا طريقه وإنما سقنا هذا كله لأن كتب أهل طريقتنا مشحونة بهذه الأسرار ويتسلطون عليها أهل الأفكار بأفكارهم وأهل الظاهر بأول احتمالات الكلام فيقعون فيهم ولو سئلوا عن مجرد اصطلاح القوم الذي تواطؤا عليه في عباراتهم ما عرفوه فكيف ينبغي لهم أن يتكلموا فيما لم يحكموا أصله .

وربما قالوا: إذا عاينوهم يتكلمون بمواجيدهم مع أصحابهم دين مكتوم، دين مشوم، وما عرفوا جهات الدين وهؤلاء ما تكتموا بالدين فقط وإنما تكتموا بنتائجه وما وهبهم الحق تعالى في طاعته حين أطاعوه وبما صح عندهم من أحاديث الأحكام ما اتفق على ضعفه وتجريح نقلته وهم أخذوه من الكشف عن قائله صحيحاً فتعبد به أنفسهم على غير ما تقرر عند علماء الرسوم فينسبونهم إلى الخروج عن الدين وما أنصفوا فإن للحق وجوهاً يوصل إليه منها هذا أحدها ورب حديث قد صححوه واتفقوا عليه وليس بصحيح عندهم من طريق الكشف ويتركون العمل به مثل ذلك سواء، فما أحسن من سلم واستسلم واشتغل بنفسه حتى يفارق موطنه بموطنه فذلك السعيد الفائز بحقائق الوجود، فالساترون لهذه الأسرار في ألفاظ اصطلاحوا عليها غيرة من الأجانب والقائلون بوجود الآثار بالهمم لا يزالون مقيمين على

مناهجهم حتى يلوح لهم أعلام بأيدي الروحانيات العلى القائمين بالمرتبة الزلفى الفهوانية فيها كتب مرقومة مقدسة تقوم لهم شواهد على تحقيق ما هم عليه وتعظيم الانتقال عن هذا الوصف إلى وصف آخر انتقالاً ميزها فينتهك ستر الساتر فيكشف ما ستر ويفك معناه ويحلى قفله بفتح مغالقه، ويتحد همم ذلك الآخر بمطالعة الحقيقة الأحدية فلا يرى إلا همأ واحداً لا غير عنه تكون الآثار على الحقيقة فتارة تكون عنه تحويراً وتارة تكون عنه عند تكون هذه الهمم عنه فهو المتوجه إليه بكل وجه وإن لم يعلم والمطلوب بكل هم وإن لو يوصل إليه والمنطوق به في كل لسان وإن لم ينقال فما أشدها من حيرة وما أعظمها من حسرة إذا كشف الغطا واتحد البصر وجمع الشمس والقمر وظهر الموتر في الأثر وأدرك بعين البصر وتحول لهم في الصور ووقع المكر بمن مكر وريح من آمن وخسر من كفر.

وجاء الخطاب الإلهي باللسان الأقدس المترجم عنه بعبارة الإخلاص فمن استخلص عبادته من يد جزائه كان حنيفي المذهب قريب المذهب فقد وفى بامتثال الأمر، وكان من عالم النور لا من عالم الأجر ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحریم: ٨] فيقول: أنا ربكم فيتبعونه.

فالجزاء عند المحققين مصروف إلى الله لا يتمكن عندهم طلب له منه لضيق الوقت والشغل به تعالى أكد عليهم فمن فاته حظه من الله فذلك الخاسر والعمل الذي هو سبب به من إقامة فرض أو سنة يطلب ثوابه بحاله فلا تشغل نفسك به فإن حركة الأبدان لا بد لها من نتائجها المحسوسة فلا تسأل ما تعطيتها الحركات بذاتها فيضيع وقتك عليك كما أن الحق سبحانه ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فالיום الزمن من الفرد وشأنه في حقتك فإنه لك يوجد ويكون لا لنفسه لنزاهته عن الأغراض أو يعود عليه من خلقه ما لم يكن عليه ولا خلق فمن أجلك يخلق فكن في مقابلة هذا الأمر واشتغل به وكن أنت كل يوم في شأن ربك كما أن ربك هو في شأنك وإنه من خلقك إلا لتعبده وتتحقق به لا لتطلب الشغل بغيره وما سواك وسواه رزق لك فإليك يصل ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٧ - ٥٨] فإذا قال لك: خذ فقل: أنت وإذا قال لك: ارجع فقل منك إليك وإذا قال لك: كيف أقول لك خذ فتقول: أنت وأنا لا أتخذ فقل له: وكذلك أنا على الحقيقة لا آخذ فإن الآخذ فعل ولا فعل لي وأنت الآخذ إذا أنت الفاعل فخذ أنت لي ما أعطيتني ولا تقل لي: خذ يا من لا يأخذ فتحجيني بالأخذ عنك ولا آخذ لي فلا أنت لي ولا آخذ لي فاحصل في العدم وهو أشر الشر وإلا فالإقالة من هذا الخطاب المهلك يا من يدرك ولا يدرك ويملك ولا يملك.

وربما يقام لك في بعض هذه المواطن الدين المستقيم الحكمي النبوي الاختصاصي

الخالصي والدين غير المستقيم الحكمي الممزوج الفكري العقلي وتميز بينهما وترى غاية كل طريق منهما الحق سبحانه من حيث سعادتك لا من حيث الشقاوة، فاسلك دين الاختصاص الخالص النبوي فإنه أرفع وأنفع وإن كان الآخر رفيع المنار ولكن بوجود هذا الآخر يضمحل رسمه وإن كان حقاً من وجه وربما لو كان واضعه في عالم الأحياء حاضر الرجوع إلى دين الاختصاصي النبوي الخالص نسخاً أليست الشرائع التي كانت عليها الأمم من قبل كأمة موسى وعيسى عليهما السلام قد نسخ بعض وجوهها شرع محمد ﷺ وقال: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني»، فأحرى الشرع الحكمي الابتداعي الفكري وهو أولى بالرفع وإن كان حقاً كما ذكرناه من وجه ثم لتعلم أن أشقى الأشقياء صاحب كتاب ضل واتبع هواه مع إيمانه بكتابه ولكن هنا نكتة أحب بيانها وإن قليلاً ما يقع التنبيه عليها وربما غلط فيها قوم من حيث الجواز الإمكانى والوجود قد ثبت على إحدى طرفي الممكن فلا سبيل إلى انقلابه وهو أن الحق سبحانه ما تجلى بشيء قط واحتجب عنه ولا كتب في قلب إيماناً فمحاه وكل من قال استتر عني بعد التجلي فما تجلى له قط ولكن جلى له فقال هو هو ولا ثبات للكون على حال فتغير عليه فقال بالحجاب فكذلك كتبه الإيمان وإتيان الآيات والبيانات إذا أعطيت في القلوب وقامت شواهدا منها فلا تزال أبداً فإذا أزيل عن شخص مثل هذا فاعلم أنه ما كتب قط في لوح قلبه ولا كان رداً عليها لكن كانت رداً عليه وأعطى عبارتها ولسانها لأعيانها ووجودها فمثل هذا العطاء يسترد ويزال ولذلك قال: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فقوله فانسلخ منها كما ينسلخ الرجل عن ثوبه والحية عن جلدها فكانت عليه رداً كما ذكرنا لم يكن عنده سوى النطق فإذا نطق ظهر مكنون الاسم وأثره بالخاصية ولا يشترط في الخواص المفردة تطهير ولا تقديس ولا حضور ولا جمعية فلا كفر ولا إيمان إلا بمجرد ما يكون النطق بتلك الحروف المعينة ظهر الأثر ولو كان القائل غافلاً عن نطقه وقد اتفق مثل هذا البعض أصحابنا وهو يقرأ القرآن فمر بآية فرأى أثراً عندها فتعجب من ذلك ولم يدر ما سببه فتفطن لقراءته على الآيات المتدمات فقرأ فلما وصل إلى آية معينة رأى الانفعال فكلمها كررها رأى الانفعال وعرف أن الآية صادفت عند التلاوة محلها الذي تفعل فيه بالخاصية فاتخذها اسماً فكان يفعل به ذلك الأمر متى شاء فمثل هذا لا يغتر به المحقق وإنما فرحه بما تحقق به كما قيل لأبي يزيد ما اسم الله الأعظم فقال: أصدق وخذ أي اسم شئت وأحاله على التحقيق لا على النطق واللفظ فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

وللقلب وجهان ظاهر وباطن فباطنه لا يقبل المحو بل هو إثبات مجرد محقق وظاهره يقبل المحو وهو لوح والإثبات فيثبت فيه وقتاً أمر ما ﴿يَمَحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمٌّ

الْكُتَيْبِ ﴿٣٩﴾ [الرعد: ٣٩] فلو كان صاحب الكتاب مؤمناً بكل كتابه ما ضل أبداً ولكن آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقاً قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦] وبهذه المثابة هم أصحاب علم الرسوم وأكثر أهل النظر الفكري من الفلاسفة وأصحاب الكلام يصدقون ببعض ما يأتي به أولياء الله مما يتحققون به من المواجيد والأسرار التي شاهدها ووجدوها فما وافق نظرهم وعلمهم صدقوا به وما لم يوافق نظرهم وعلمهم ردوه وأنكروه وقالوا: هذا باطل لمخالفة دليلنا ولعل دليل هذا المسكين لم يكمل أركانه وهو يتخيل أنه كامل فهلا سلم هذا القول لصاحبه ولا يلزمه التصديق فكان يجني ثمرة التسليم وأنا والله أخاف على المنكرين على هذه الطائفة وقد قال بعضهم من قعد معهم يعني أهل الحقائق من الصوفية وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه.

وقد سألت بعض النظار ممن يدعي الحكمة بعض المحققين من أهل الوجود عن مسألة وأنا حاضر وطلبتهم قعود فأخذ المحقق يتكلم في تلك المسألة فقال له الناظر: هذا لا يصح عندي فبيته لي فلعلي فيه على غلط فعرف المحقق أن قوله واهية منه فسكت عنه من أجل الجدل والخصام فإنهم لا يقولون به لما فيه من سوء الأدب ورفع البركة قال ﷺ وقد تنازع أصحابه عنده: «عندي لا ينبغي التنازع»، وقال ﷺ: «رأيت ليلة القدر فتلاحي رجلان فرفعت».

فطريق الكشف والشهود لا تحتمل المجادلة والرد على قائله وحرمانه، يعود على المنكر وصاحب الوجود مسعود بما حصل عليه فقام واحد من طلبه ذلك الشيخ وقال للنظار المسألة التي أوردها سيدنا في غاية الإيضاح صحيحة وإن لم أقدر على العبارة عنها فقال الفقيه كلام مليح مزخرف حسن النسيج تقبله العقول بأول وهلة فإذا حكته في محك النظر وسبرته بالأدلة ذهب ولم يكن له وجود وكان باطلاً محضاً مثل هذه المسألة التي أوردها سيدنا الساعة فسكت ذلك الشيخ عن الكلام فيها ولم يتفطن الناظر لما قاله وما جرى على لسانه وكان ذلك تعريفاً لهذا المحقق بما في نفس هذا الناظر ليمسك عن الكلام معه في مثل هذه الأمور.

ثم لتعلم أن الإيمان المؤيد بالأعمال الصالحة أقسامه في يد الحضرة المقدسة فيرى عند إقامته فيها تفجر أنهار العلوم والمعارف والحكم والأسرار من بين تلك الأنامل ويرى ما ملكته تلك اليد لأصحاب المقامات المحمدية فتتغذى بذلك روحانية ساكن هذه الحضرة وهي رابعة أربعة كلهم مشتركون في هذا المقام الأقدس فهذه حضرة الإقامة والثانية حضرة

النور والثالثة حضرة العقل والرابعة حضرة الإنسان.

وحضرة الإنسان أتم الحضرات وجوداً فحضرة الإقامة إذا نزلها العبد شرب من نهر الديمومية وأنتج له هذا المقام بهذه الحضرة مقام الخشية الربانية والرضا الإلهي فإن الخشية الإلهية تفتح حضرة أخرى غير هذه سيرد ذكره في منازل «الفتوحات المكية» وكذلك خشية الهوية سترد أيضاً في منازل الفتوحات المكية سكتنا عنهما.

وهذا المنزل الذي تكلمنا عليه في هذا الكتاب فهو منازل الفناء وطلوع الشمس وله مرتبة الإحسان الذي يراك به الإحسان الذي تراه به قال جبرائيل عليه السلام للنبي ﷺ: ما الإحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه» وأشار لأهل الإشارات بقوله: «فإن لم تكن تراه» أي رؤيته لا تكون ولا بفنائك عنك.

وأثبت الألف من تراه لأجل ظهوره لتعلق الرؤية إذ لو حذفها وقال فإن لم تكن تراه لم يصح الرؤية فإن الهاء من تراه كناية عن الغائب والغائب لا يرى والألف محذوفة فكان يرى بلا رؤية هذا لا يصح فلماذا ثبت. وأما حكمة ثبوت الهاء فإنه كان معنى فإن لم تكن تراه إشارة إلى أنك إذا رأيت بوجود الألف فلا تقل أحطت فإنه تعالى يجعل ويعز عن أن يحاط به وما لم يحط به فتكون الهاء الذي هو ضمير ما غاب عنك من حقيقة الحق عند الرؤية تشهد لك بعدم الإحاطة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، تم الكتاب بحمد الله الوهاب.